أهمية تدريس مادة الثقافة الإسلامية لمختلف الطلاب ودورها في تعزيز قيم الوسطية بينهم

د. إلياس بلكا
أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي المشارك
بمعهد دراسات العالم الإسلامي بجامعة زايد
الإمارات العربية المتحدة

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي علم الإنسان بالقلم، علّمه ما لم يعلم. والصلاة والسلام على أستاذ البشرية ومعلم الناس الخير، وعلى آله الطيبين وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإن موضوع هذا البحث هو بيان أهمية تدريس مادة الثقافة الإسلامية لجميع الطلاب في مختلف التخصصات؛ ذلك أن من أسباب غياب الوسطية لدى فئات واسعة من الشباب: عدم توفر تربية دينية سليمة وثقافة إسلامية صحيحة، فيعاني الشباب من فراغ معرفي وتربوي يصبح معه فريسة سهلة لكل أنواع التطرف، بشقيه: الإسلامي والعلماني.

لو قدمنا لشبابنا ثقافة إسلامية وسطية، حتى لمن يدرس الطب أو الهندسة أو الرياضيات منهم.. فسيفهمون دينهم وواقعهم وظروف عصرهم مما يجعل منهم رجالا ونساء فاعلين وإيجابيين، يبنون ولا يهدمون.

لذلك فعدم الاهتمام بتدريس هذه المادة، أو تدريسها بمناهج قديمة متجاوزة، أو عدم تدريسها أصلا، كما هو حال كثير من البلاد العربية والإسلامية.. كل ذلك يساهم في انتشار الفهوم المعوجة للدين، ويهيئ الشباب لتقبل الأفكار الخطأ. لذلك لابد أن تكون المادة إجبارية في جميع الجامعات وفي مختلف مراحل الدراسة.

تمهيد في التعريف بمصطلحات البحث:

أهم مصطلحات البحث هي: الوسطية والثقافة الإسلامية، لذلك وردت في العنوان. وتوجد مصطلحات أخرى وثيقة الصلة بهما.

أولا - الوسطية، ومصطلحات أخرى:

مادة وسط تدل على مجموعة معاني، لكنها جميعا متقاربة، منها عند ابن فارس: " العدل، والنصف. وأعدل الشيء أوسطه ووسطه." [١] فالوسط هو ما بين طرفي الشيء، أو بمعنى خيار

---

(١)معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ٦/١٠٨.

الشيء وأفضله.. [١]

وقد جاءت الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم بمعنى العدل والخير والوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. قال سبحانه: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا.) البقرة:١٤٣. وذكر الزجاج أن فيها قولين: " عدلا. وقال بعضهم: أخيارا. واللفظان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير، والخير عدل." [٢]

الغلو:

قال ابن فارس: الغلو " يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر." [٣] وقال ابن منظور: "غلا في الدين والأمر يغلو غلوا، جاوز حدّه." [٤] ومنه قول الله سبحانه: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق.) النساء:١٧١. وقول نبينا عليه الصلاة والسلام: "يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين." [٥]

إذن حقيقة الغلو هو الزيادة والإفراط في مجاوزة المقدار المعتبر شرعا في أمر من أمور

الإفراط والتفريط:

أفرط إذا تجاوز الحد في الأمر، فهو الإسراف، والزيادة على ما أُمرت به. أما فرّط تفريطا فهو التقصير، ففرّط في الشيء أي ضيعه وعجز عنه. [٧] وما ورد من الكلمة في القرآن فمن الثاني.

---

(١)انظر أيضا: لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور، ٤٢٨/٧.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، ٢١٩/٢.

(٣)معجم مقاييس اللغة، مادة غلا، ٣٨٨/٤.

(٤)لسان العرب، مادة غلا، ١٥/ ١٣٢.

(٥)رواه ابن ماجه في السنن، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، حديث رقم ٣٠٢٩. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، ١٧٧/٢.

(٦)الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، لعلي الشبل، ص٨.

(٧)انظر مادة فرط في معاجم اللغة: معجم مقاييس اللغة، ٤٩٠/٤. لسان العرب، ٧/ ٣٧٠.

الجفاء، والجفو:

لغة نبو الشيء عن الشيء. جاء في الحديث: اقرءوا القرآن.. ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه. [١]
قال أبو عبيد: الجافي عنه التارك له وللعمل به. [٢]

التطرف:

التطرف في المعاجم هو الأخذ بأحد الطرفين والميل لهما. [٣] ويقصد به اليوم العدول عن طريق الوسطية والاعتدال في شؤون التدين والثقافة والعلاقات الاجتماعية والرؤية السياسية. لذلك يرى بعض الباحثين أنه يجدر بنا استعمال لفظة الغلو بدل التطرف، ذلك لأن " الوصف الشرعي للتشدد في الدين والغلو فيه يجب أن يكون مرجعه إلى الشرع نفسه لا اصطلاح الناس ومفاهيمهم وإطلاقاتهم." [٤]

ولعل من أهم علامات التطرف: عدم الاعتراف بالآخر، ورفض الاستماع له، أو اعتبار رأيه، والتعصب للرأي، والجمود على الموقف الواحد.

ثانيا- الثقافة الإسلامية ومصطلحات أخرى:

معنى الثقافة:

لمادة ثقف ثلاثة معان: الأول: التقويم، إذا ثقفت الشيء، فأنت قوّمته. والثاني الإدراك. والثالث الحذق والمهارة، ففلان ثقف، أي يستوعب المعلومة بسرعة. [٥]

وفي المعجم الوسيط: الثقافة اصطلاحا هي مجموعة المعارف والمعلومات النظرية والخبرات العملية التي يكتسبها الإنسان، ثم يحدد على ضوئها طريقة تفكيره ومنهج سلوكه.

---

(١) مسند أحمد، زيادة في حديث عبد الرحمن بن شبل، ٣/ ٤٢٨،٤٤٤.
(٢) غريب الحديث، ١/ ٤٨٣.
(٣)انظر: معجم ابن فارس، ولسان ابن منظور، مادة طرف.
(٤)الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف.. لعلي الشبل، ص٩.
(٥) لسان العرب، مادة ثقف، ١٩/٩.

وبناء على المعنيين معا، فإن الثقافة الإسلامية تكون هي مجموعة المعارف والمعلومات النظرية والخبرات العملية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي يكتسبها الإنسان ويحدد في ضوئها طريقة تفكيره ومنهج سلوكه في الحياة. [١]

مصطلحات مقاربة:

١- التربية الإسلامية: في المصطلح معنى التربية يحيل على التنشئة على الأخلاق الحسنة والمفاهيم الفكرية السوية، وإذا وصفت هذه التربية بالإسلامية فإنها تعني المنظومة التربية القائمة على منهج الإسلام،[٢] لذلك فهو مصطلح خاص، وإن كان العرف في كثير من البلاد العربية هو إطلاق كلمة "التربية الإسلامية" على المقررات الدراسية الخاصة بالدين في المستويات الأساسية والثانوية. يقول الأستاذ عبد الله اليوسف: "من أهم المواد الدراسية التي تساهم بدور فاعل في خدمة الأمن لدى الطلاب هي مواد التربية الإسلامية التي تدرس في جميع المراحل الدراسية منذ المرحلة الابتدائية إلى أعلى المراحل الدراسية. وتقوم مواد التربية الإسلامية على ترسيخ العقيدة الإسلامية في نفوس الطلاب في المراحل الأولى للتعليم..إن المواد الدينية في المدارس السعودية تشكل حجر الزاوية في التوعية الأمنية لحفظ المجتمع من الجريمة والانحراف.." [٣]

٢- الفكر الإسلامي: هو التراث العلمي والذهني الذي أنتجه المسلمون في مختلف الحقول المعرفية. وهو تراث نظري وعملي.. يحاول أن يستهدي بالوحي، فينجح أحيانا ويفشل حينا، لذلك فهو نتاج إنساني لجدل الدين المتعالي والواقع النسبي. ولّما كان هذا المصطلح يحيل على الجهد

---

(١) محاضرات الثقافة الإسلامية، لمجموعة من أساتذة أصول الدين بجامعة الشارقة، ص٨. يجدر بالقارئ الكريم الاطلاع على مفهوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور للمصطلح، انظر كتابه: روح الحضارة الإسلامية، ص ٣١ إلى ٢٧.

(٢) راجع: منهج التربية الإسلامية، للشيخ محمد قطب.

(٣) دور المدرسة في مقاومة الإرهاب والعنف والتطرف، لعبد الله اليوسف، ص ١٥-١٦.

البشري الفكري في فهم الإسلام وتنزيل ممارسته على أرض الواقع.. فإن الكاتبين عدلوا عنه إلى مصطلح الثقافة الإسلامية.

٣- مادة الحضارة الإسلامية: أي دراسة النواحي المدنية والعمرانية في تاريخ الأمة الإسلامية. فالتركيز هنا على الجانب الحضاري في التاريخ الإسلامي، أي جانب العمران وما فيه من بناء وعمارة وصناعة وعلوم وفنون..

٤- دراسات إسلامية: وهذا مصطلح عام، فكل دراسة لها علاقة بالإسلام باعتباره دينا، أو باعتباره تاريخا أو حاضرا.. فهو يندرج تحت مسمى الدراسات الإسلامية.

فهذه المصطلحات مغايرة لمصطلح الثقافة الإسلامية، لكنها تتداخل معه وتشترك في عدد من المعاني والمقاربات.

الفصل الأول: الوسطية منهج صلاح وإصلاح.

نحتاج أولا لتحديد مفهوم الوسطية، ومقابله الذي هو التطرف، ولابد أن نحدد أي تطرف نقصد، ثم كيف تشكل الوسطية الحلّ. بعدها يطرح سؤال العلاقة بين الوسطية والفكر والتعليم، خاصة أن المدرسة والجامعة هما من أفضل محاضن الوسطية وإشاعتها في مختلف طبقات الأمة.

المبحث الأول

حقيقة الوسطية وحاجتنا إليها

المطلب الأول: الوسطية توازن دقيق بين طرفين:

تحذف من المناسب - قبل بسط هذه المسائل- أن نعرض لأهم نتيجة من نتائج تلك اللمحة السريعة عن مصطلحات الوسطية والأخرى ذات الصلة به، حيث نستنتج أن الوسطية مقام توازن بين أطراف متطرفة، لذلك فهي الاعتدال المحمود بين طرفي نقيض. يقول الشاطبي في وسطية التشريع:" الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال (..) فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط. فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر(..) والتوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء."[١] ولذلك مثلا كان "المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال".[٢]

إن التوازن – فيما يرى عماد الدين خليل- هو أكثر الملامح الأساسية أهمية في التصور الإسلامي للحضارة. [٣]

وإن التعبير القرآني عن هذه الحالة الشاملة من التوازن والعدل والخير والاستقامة على الصراط المستقيم والقيم الحسنة.. بلفظ واحد، هو الوسط.. لهو تعبير معجز.

---

(١)الموافقات، ٢/، ١٢٨١٢٤.

(٢) الموافقات، ٤/١٨٨.

(٣)أصول تشكيل العقل المسلم، ص ٩٨.

المطلب الثاني: حاجتنا إلى الوسطية.

حافظت الوسطية على استمرار المجتمع المسلم وحفظته من مخاطر عدّة طيلة تاريخه. فقد عرف هذا المجتمع أنواعا منوعة من الغلو في الدين والغلو عنه، يكفي أن تراجع كتب الفرق والمقالات، كالملل والنحل للشهرستاني، لتدرك ذلك. لكن المسيرة الوسطية للأمة استمرت، بينما انقرضت أكثر مذاهب الغلو وصوره.

واليوم أيضا، نحتاج إلى منهج الوسطية، خاصة مع كثرة أشكال الانحراف عن الصراط المستقيم وتعددها، وعلوّ صوتها. وفي ذلك خير للأمة، بل وللبشرية أيضا. جاء في توصيات "مؤتمر: نحو إسهام عربي إسلامي في الحضارة الإنسانية المعاصرة" الذي نظمه منتدى الوسطية للفكر والثقافة: " ٣- أهمية تبني الفكر الوسطي المعتدل باعتباره اللبنة الأساسية في الحضارة الإسلامية، التي كان لها الأثر الكبير في تقدم الإنسانية، في شتى المجالات المعرفية، ولأن إحياء هذا الفكر سوف يخدم حاضر المسلمين ومستقبلهم، ويزيل الحواجز والعوائق المصطنعة التي تفصل بين المسلمين وغيرهم.." [(١)]

إن عالمنا العربي- الإسلامي يعاني من تحديات عدّة، بعضها يتعلق بمشكلات الغلو في الدين، وبعضها يخص قضايا التنمية وبناء الدولة والعلاقات مع الآخر، ومنها ما يتعلق بالتعليم والتربية والأخلاق.. وهذه المشكلات مترابطة فيما بينها، ويؤثر بعضها في بعض، حتى لكأنها مظاهر لمشكلة واحدة. لذلك ما لم نرسخ في حياة الأمة سبيل الوسطية الإسلامية، وما لم نجتمع على ذلك ونعترف به ونعمل بمقتضاه.. فإن هذا العالم سيظل يتخبط في سيره، ولن ينجح في تخطي هذه المشكلات التي تعوق نهوضه وبناء نموذجه الحضاري. يقول القرضاوي متحدثا عن كثرة كتابته في موضوع الوسطية: "إنما عنيت بهذا الأمر كل هذه العناية، لأني أرى هذا الفكر أو هذا الاتجاه: هو طوق النجاة للدعوة الإسلامية، بل للأمة الإسلامية كلها. وهو الجدير أن يمضي بها في الطريق الصحيح، الذي يوصل إلى الغاية المنشودة، وهي الرقي بالأمة ماديا وروحيا، والعودة بها إلى دفة القيادة للبشرية، بما لديها من رسالة ربانية إنسانية أخلاقية عالمية، متكاملة متوازنة.كما أني أرى الإعراض عن هذه الوسطية هو الهلاك بعينه، والضياع في الدين والدنيا معا. سواء كان هذا

---

(١)مؤتمر عمان بالأردن، من ٢٦ إلى ٢٨ شعبان ١٤٢٨هـ.

الإعراض جنوحا إلى جانب التسيب والانفلات، وهو جانب التفريط والتقصير(..) أم كان الإعراض عن الوسطية جنوحا إلى جانب الغلو والتنطع والتشدد، وهو جانب الإفراط أو التطرف، كما يسمونه اليوم." (١)

المطلب الثالث: الوسطية علاج لجميع أنواع التطرف:

لو أخذنا التطرف نموذجا ومثالا لمشكلات الأمة، فسنجد أننا نعاني من نوعين منه: التطرف الإسلامي، أعني الذي يرفع شعار الإسلام؛ والتطرف العلماني، وهو المصرّ على إزاحة الدين من الحياة وبناء مجتمع لا علاقة له بالإسلام إلا في أضيق الحدود، وهي حدود العبادات والشعائر في الغالب. ويعاني عالمنا العربي أيضا من انتشار الانحلال على المستويين الفكري والأخلاقي، وهو نوع من التطرف العلماني كذلك. يقول الصادق المهدي - رئيس المنتدى العالمي للوسطية-: "أوربا قامت نهضتها بالتأكيد على تراثها القديم، وهو ما لم نقم به في مواجهة تراثنا، فظهرت مدرستان في المجتمع الإسلامي: الأولى تدعو للانكفاء وتساوي بين التفكير والتكفير، في حين أن المدرسة الثانية هي مدرسة الاستلاب التي آمنت بكل ما هو غربي وتنكر بعض نصوص القرآن إرضاء للغرب ونزعاته، وهو ما يجعلنا في حاجة لمدرسة وسطية تؤمن بالمفهوم الحميد للأصولية في مجال العقائد مع إعمال العقل وأدواته في أبواب المعاملات." (٢)

إن الوسطية الإسلامية هي الحل، وهي نافعة لمعالجة التطرفين معا، وردّهما إلى سواء السبيل. قال الله تعالى: (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون.) الأنعام: ١٥٣.

---

(١)رسالة: كلمات في الوسطية والاعتدال. ضمن سلسلة الدخل لمعرفة الإسلام. وقد تداولتها كثير من المواقع على النت.

(٢) مختصر وقائع ندوة تيار الوسطية ودوره في بناء الأمة، تغطية موقع الإسلام اليوم.

المبحث الثاني

الوسطية علاج للتطرف العلماني والانحلال الخلقي:

أما هذا، فلأن التاريخ يخبرنا بأنه يستحيل تجاوز الإسلام في أي عملية إصلاح أو تنمية أو نهضة. وكثير من المفكرين العرب غير واعين بهذه الحقيقة، لذلك يدعون إلى ما يسمونه "ثورة دينية" في العالم الإسلامي، وخلاصتها هو الدعوة لإصلاح الإسلام، كما جرى ذلك في المسيحية. لقد وجدت أوربا أن الكنيسة عائق كبير في طريق نهضتها، فكان الحل هو الثورة على الكاثوليكية، والتي أطلق عليها فيما بعد: الإصلاح الديني.

خطأ العلمانيين:

ويقترح الفكر البشري – والعلماني خصوصا – مجموعة من الآليات لإصلاح الأديان، ومعظمها يعود إلى زمن الإصلاح المسيحي، وأهم هذه الآليات وأخطرها – خصوصا بالنسبة للإسلام الذي لا يعرف مشكلة مصداقية المصادر التي تعرفها المسيحية -، هو: آلية التأويل، أو سلاح التأويل.. لأنه ينتهي بإفراغ الحقائق الدينية من مضامينها المقصودة وتعويضها بأفكار بشرية صرفة.

لكن المقارنة على مستوى المضامين والاعتقادات بين كلا من الدينين الإسلامي والمسيحي، وعلى مستوى الطقوس والعادات، وكذا على مستوى الممارسات التاريخية والعمليـــة...تؤكد أنه لا يجوز الحديث عن إصلاح إسلامي يماثل الإصلاح المسيحي، وأنه لا يمكن تكرار درس التجربة الأوربية في آخر العصر الوسيط وبداية النهضة. إن الإسلام ديانة أكثر عقلانية من المسيحية بمراحل، ولا توجد في القرآن أخطاء علمية كما في الكتاب المقدس، وهو ما دلّل عليه بوضوح الفرنسي موريس بوكاي،(١) لذلك لم يصطدم الإسلام بالعلم كما اصطدمت الكنيسة بالفلك خاصة، ولا توجد عندنا طبقة إكليروس ولا صكوك غفران ولا رهبانية.. إن هذه المقارنة

---

(١) اقرأ: الكتاب المقدس والقرآن والعلم، لموريس بوكاي. وبين يدي النسخة الفرنسية الأصلية، لكن الكتاب مترجم إلى اللغة العربية.

الموضوعية تصحح لأكثرية من المثقفين الغربيين، ولكثير من زملائهم العرب، وهما كبيرا ومنتشرا وخطيرا، وهو أن على الإسلام – مثله مثل المسيحية – إحداث ثورته الخاصة، وإطلاق إصلاح ديني هو – إلى حد بعيد – نسخة أخرى ومتأخرة للإصلاح المسيحي الذي قاده لوثر وكالفن. إن خطأ هؤلاء المفكرين العرب هو حين اعتقدوا في تماثل النسقين الإسلامي والمسيحي.

ولعل الكثيرين من هؤلاء لا يعرفون أنه من المحتمل جدا أن تكون أصول الإصلاح المسيحي البروتستانتي إسلامية. أي أن هذه الثورة الدينية التي يطالب بها هؤلاء موجودة أصلا بين أيديهم، فهي نفسها الإسلام الخالد والمتجدد. وهذا موضوع فائق الأهمية، ويمكن الاطلاع في ذلك على الرسالة اليتيمة في هذه القضية بمكتبتنا العربية، فيما أحسب والله أعلم، وهي: صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، للشيخ أمين الخولي رحمه الله. (١)

الإصلاح بالدين، لا إصلاح الدين:

وإذا كانت فكرة أو إيديولوجية الإصلاح الديني لا تتلاءم مع الإسلام باعتباره ديانة خاصة، ولا مع التجربة التاريخية الإسلامية.. فإن هذا الدين يحتوي على إمكانيات ضخمة للنهوض الحضاري يلخصها مفهوم إسلامي أصيل هو: التجديد، وهو مفهوم قادر على الدفع بالأمة إلى الأحسن دون أن تضطر إلى إلغاء هويتها الدينية الراسخة.

وتشير التجارب التاريخية للأمة جميعا إلى أن الإصلاح يكون بالإسلام، فلا محل للحديث عن إصلاح الإسلام.. وإنه لأمر مثير للإعجاب والتساؤل يشبه " القانون " التاريخي أو الاجتماعي: قانون خاص بالشعوب الإسلامية وبالتاريخ الإسلامي، وهو أن تاريخ الأمة يدل على أنها لم تعرف ظاهرة إصلاح الدين، كأوربا، وإنما لجأت دائما إلى سبيل الإصلاح بالدين. ويعلل ابن عاشور هذه المكانة الاستثنائية للدين في الأمة، فيقول: "هذا راجع إلى موقع العقيدة الدينية من المقومات لكيان الأمة، فإن موقع العقيدة الدينية من مقومات الكيان الاجتماعي للأمة الإسلامية، باعتبارها مجتمعا دينيا بالمعنى الأخص، وهو موقع رئيس جوهري، كان فيه الدين العامل الأول المباشر لصنع المجتمع، وكان هو الحافز لنهضته الفكرية، والممهد له طريق الاتصال بما أنتجت الأفكار والصنائع.. فبالدين

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسحية، لأمين الخولي. الأعمال الكاملة، الجزء التاسع

فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة. فكان وضع الدين على صورته المستقيمة قاضيا بأن يتناول به المسلم الحضارة متلقيا ومنشئا ومتصرفا.." (١)

إن من خصوصيات التجربة الإسلامية تحذف أن الإصلاح فيها كان يتم من خلال الإسلام وليس على حسابه، ويجوز أن أرفع هذا إلى مستوى القاعدة التاريخية بحيث يمكن اعتبارها " سنة " بالمعنى القرآني لكلمة " السنن ".

لا مندوحة عن فهم هذا القانون، والوعي بأن قياس الإسلام على المسيحية خطأ علمي بالغ.. خطأ مسئول عن كثير من الاضطراب الفكري الحاصل في عالمنا العربي منذ حوالي قرن من الزمان.

- أهمية القيم اليوم.

إن أساس القيم هو المعتقدات والأفكار. وقد توصل العالم في العقدين الأخيرين خاصة إلى خطورة قضية القيم، فلا نهضة ولا قوة ولا نجاح بدون قيم. لقد توصلت العلوم الاجتماعية إلى أن دعوى الحياد التام خطأ صرف، فلابد أن يقوم منهج البحث الاجتماعي على أساس من القيم، وليس في هذا غضاضة، كما لا يقدح ذلك في الموضوعية العلمية.

أما عالم الاقتصاد فقد اكتشف قيمة القيم خاصة مع الانهيار المالي الأخير، إذ كان من أهم أسبابه جشع البنوك وفوضى البورصة وكذب المدراء.. حتى عاد علماء الاقتصاد يتحدثون عن ضرورة استحضار القيم في عالم المال والأعمال. وهذا أمر عجيب حقا، إذ قبل عقد من الزمن فقط كان مثل هذا الحديث هرطقة وأيّ هرطقة.

والحق أننا مهما حاولنا أن نفكر في القيم فنستنبطها أو نضعها.. فسنجد أنها وثيقة الصلة بالدين. إن الأديان – خاصة السماوية منها- تحتوي على قيم حضارية عديدة، حتى إن بعض الدارسين من الغرب يعتبرون أن الأخلاق هي جوهر المسيحية. تقول الأستاذة إقبال: تبيّن الباحثون والمفكرون أن "التنمية الحالية عملية تقنية واقتصادية فجة أيّ مجرّد ضمّ كمّ إلى كم.. (لكن) مع

---

(١)روح الحضارة الإسلامية، ص ٧٤-٧٥.

بروز عدد وافر من الأدبيات النقدية أعيد الاعتبار إلى القيم الإنسانية والحضارية في مجال التنمية، وذلك بهدف أنسنة العملية التنموية. وفي هذا الإطار يلعب الخطاب الديني دورا مهما في تطوير رؤية جديدة للواقع تساعد على صياغة قاعدة جديدة للعمل الإنساني وتساهم في التحول التدريجي نحو أنموذج جديد ينطوي على مفاهيم وقيم جديدة. هذا الأنموذج الجديد هو حصيلة المقاربة الدينية بعلاقة الفرد بالكون القديمة والعميقة." (١)

فشل الجامعة العلمانية في العالم العربي:

وهذا سبب آخر للتركيز على رفد التعليم الجامعي بجرعة كافية من الثقافة الدينية. يقول طه العلواني: "يوم فتحت الجامعات في عالمنا الإسلامي كان ذلك تقليدا وتكريسا لحالة التبعية الفكرية الثقافية للغرب في الشكل والمحتوى.." (٢)لذلك فشلت في أداء مهمتها في أن تكون قاطرة للتنمية والنهضة، بل غدت أكثر " الجامعات والمعاهد ومراكز البحث في عالمنا الإسلامي، هي بوضعها الحالي عقبة.. وهي اليوم بمشاكلها وقضاياها معضلة كان ينبغي أن تكون حلا." (٣)

النتيجة:

إن فرصتنا في عالمنا العربي كبيرة، إذ بين أيدينا دين راق هو الإسلام، وهو وراء كل القيم الجميلة في حضارتنا من: علم وفن وجمال ونظافة وتسامح وصدق وتفكير وتدبر وتعاون وإنسانية ورحمة وسعي في الأرض وعمران لها وقوة وفتوة..

وإن الإسلام ليس فقط ضحية الغلو فيه، بل كذلك ضحية الغلو عنه، ولذلك قال المناوي: "دين الله بين الغالي والجافي، وخير الناس النميط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين و لم يلحقوا بغلو المعتدين." (٤)

---

(١) مقال: "دور الخطاب الديني في تكريس القيم الحضارية"، لإقبال الغربي. ضمن وقائع ندوة: الخطاب الديني: سند التنمية. ص ٩٩.

(٢) إصلاح الفكر الإسلامي، لطه جابر العلواني، ص ١٦٦

(٣) إصلاح الفكر الإسلامي،ص ١٦٧

(٤) فيض القدير، ١٣٤/٣. عند شرح حديث: إياكم والتعمق في الدين.

وحلّ هذا الوضع يكمن في اعتراف التيارات العلمانية في الأمة بأن الإسلام هو المرجعية الأعلى للشعوب العربية والإسلامية، وأن تدرك أن نهضتنا لا يمكن إلا أن تقوم على أساس الدين، وإذا كان إصلاح الدين شرطا للنهضة الأوربية، فإن الإصلاح بالدين هو شرط نهضتنا العربية-الإسلامية.

والنتيجة التي نخرج بها الآن هي أن من المأمول والمشروع، بل من الواجب، أن نسعى إلى إصلاح أوضاعنا المعوجة وتحقيق نهضتنا الحضارية الشاملة.. شرط أن يتمّ ذلك على قاعدة الإسلام: (أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟) المائدة: ٥٠.

لذلك يجب أن نراعي هذا الدين في مناهج التعليم ومضامين التدريس، بمعنى أنه لا بد من توعية ناشئتنا وشبابنا بالإسلام وتربيتهم على مثله العظيمة.

المبحث الثالث: الوسطية علاج للتطرف الديني والغلو الفكري:

كان الرسول ﷺ يعرف – بما علّمه الله سبحانه- أن الغلوّ سيحدث في الأمة، وأنه سيكون من ابتلاءاتها الكبرى. فأوصى بسلوك طريق الوسطية والاعتدال، في وصايا كثيرة، منها كما تقدم قوله عليه السلام: إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين. قال المناوي في معنى الغلو في الدين: أي التشديد فيه ومجاوزة الحد والبحث عن غوامض الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها. وقال ابن تيمية: قوله هذا (أي الحديث) عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. والغلو مجاوزة الحد، بأن يزاد في مدح الشيء أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك... [١] ومنها أيضا قوله الكريم: "إياكم والتعمق في الدين، فإن الله قد جعله سهلًا، فخذوا منه ما تطيقون، فإن الله يحب ما دام من عمل صالح وإن كان يسيرا".[٢]

وفعلا حدث الغلو في الأمة، فأنهكها وشغلها قديما، وشتّت طاقاتها وأضعفها حديثا. [٣]ويعتبر

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس.
عن: فيض القدير، ٣/١٢٥-١٢٦.

(٢) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه، بسند ضعيف. عن: فيض القدير، ٣/١٣٤.

(٣) راجع: الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية، لعبد الله السامرائي، وانظر بالخصوص جواب المؤلف عن سؤال: هل حقق الغلو أهدافه؟ ص ٢٠٣-٢٠٤

السيد مروان الفاعوري – الأمين العام للمنتدى العالمي للوسطية -بأن التطرف قدّم أعظم خدمة لأعداء الإسلام، وبأنه ساهم في تعثر مشاريع التنمية وأشعل الصراعات بين الإخوة ووسّع الهوة بين الشعوب والدول وأضعف التيار الديني المعتدل.. [١]

- *الأساس الفكري للغلو والتطرف:*

يلح كثير من الكُتاب اليوم على أن جوهر أزمة الأمة فكري، أي يتعلق بنظام التفكير وأولوياته ومصادره. فأي خلل في فهم الدين أو فهم الواقع، أو كليهما، يؤدي لا محالة إلى خلل في السلوك.[٢] إذن ليس غريبا أن يتفق زعماء الإصلاح على أن التعليم السليم من أهم المداخل لتغيير الأوضاع السيئة للعالم الإسلامي، وللدفع به قدما إلى الأمام، بما في ذلك تعليم المرأة. [٣] فهذه قاعدة مسلّمة عند جميع المصلحين طيلة القرنين الماضيين، من رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إلى عبد المتعال الصعيدي وعلال الفاسي وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي. [٤]وهذا شكيب أرسلان مثلا يتساءل لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟ فيخصص فصلا عنوانه: حث القرآن على العلم: باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقيّ. [٥] أما محمد عبده فتكلم طويلا في اشتغال المسلمين بمختلف العلوم في الماضي، وأن ذلك واجب عليهم اليوم أيضا.[٦]

إن الدين لما نفذ إلى أعماق المسلمين وفقهوه حق الفقه أقبلوا على العلم والتعلم بقوة، لذلك فإن الفصام بين الدين والجامعة أمر خطر يضر بهما معا، ولن يبدع المسلمون شيئا بمعزل عن الأساس الفكري الإسلامي. يقول الفاضل بن عاشور في شرح كيف أثار الإسلام في نفوس أتباعه

---

(١) مختصر وقائع ندوة تيار الوسطية ودوره في بناء الأمة، في:موقع الإسلام اليوم.

(٢) راجع: أزمة العقل المسلم، لعبد الحميد أبو سليمان، ص ٤٦. إصلاح الفكر الإسلامي، لطه جابر العلواني، ص ٦٤، ٩٠.

(٣) راجع: الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر، لسعيد العلوي، ص ٣٠ فما بعدها، ص ١٩٣ فما بعدها.

(٤)راجع: "عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام." ص ١٨٥ إلى ٢٠٠. "رفاعة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث." ص ٣٥٧ فما بعدها. كلاهما لمحمد عمارة.

(٥) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، لشكيب أرسلان، ص ١٠٨.

(٦)في كتابه: الإسلام دين العلم والمدنية، خاصة صفحة ١٢٩ فما بعدها.

الحرص على العلم: "إن هذا المجتمع الإسلامي مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان، خلالا نفسية جديدة. لم يستفد علما ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذي اكتسبه من الخلال طوّع له العلم والصناعة والقوة المادية، فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار والمعرفة والإيمان. ولما عرف نواحي الوجود على ما هي عليه، بنظره الديني، اتجه إلى بحث ما اشتملت عليه تلك النواحي من التفاضل، فتكونت فيه داعية طلب العلم على اختلاف مواضيعه وفنونه، فاصطنع العلوم التي هي من التراث الإنساني المشترك، وابتكر العلوم التي هي من التراث الإسلامي الخاص. وجعل من مجموعة تلك العلوم الإنسانية المشتركة، والإسلامية الخاصة، مجالا لتصريف المدارك الدينية التي التأمت تلك العلوم على محورها، مع اختلاف عنصريها." (١)

وتوجد اليوم حقيقة معروفة، تداولتها الدراسات والصحف، وهي أن التعليم الشرعي الصحيح والمتين لم ينشئ تطرفا ولم يخرّج متطرفين، فأعلام التطرف وأتباعه لم يتخرجوا لا من القرويين أو الزيتونة، ولا من الجامعة الإسلامية بالمدينة أو جامعة أم القرى، ولا من الأزهر أو ندوة العلماء.. حتى أصبح معطى ثابتا أن خريجي المعاهد الشرعية نادرا ما يلتحقون بتيارات التطرف، بخلاف التخصصات الأخرى، بما فيها العلمية والتجريبية، التي يعرف أصحابها ضحالة في التكوين الإسلامي، حيث لا تقدم هذه الكليات لطلابها شيئا يذكر من الثقافة الإسلامية في بلدان عربية كثيرة.

وهذه بعض نظرات في أسباب هذا التطرف، وفي بعض العوامل المساعدة عليه:

- جهل أجيال متعاقبة بأمور دينها جهلا بسيطا.

وأمثلته أكثر من أن تحصى، فالكثيرون لا يملكون الحدّ الأدنى من المعرفة بالعقيدة والتوحيد، وبالقرآن والحديث وعلومهما، وبالفقه ومدارسه، وبالسيرة النبوية وأحداثها، وبالتاريخ الإسلامي ومنعطفاته، وبحاضرنا المسلم وتحدياته.. بل كثيرون يجهلون كيف يقيمون عباداتهم على الوجه

(١)روح الحضارة الإسلامية، ص ٧٢-٧٣.

الصحيح المشروع.. لذلك فثقافتهم الدينية ضحلة محدودة. يقول طه العلواني: " إن الطالب المسلم يبدأ مرحلته الجامعية غالبا في وقت لا تتجاوز الرؤية الإسلامية لديه معرفة قليلة بالإسلام، يكون قد نالها في البيت أو في مراحل التعليم الأولية أو منها جميعا. ومن الواضح أن هذا القدر من المعرفة الإسلامية، لا يشكل رؤية إسلامية أو فكرا إسلاميا لديه، ولا يحقق له حقيقة الانتماء الإسلامي الذي يصونه من التأثر والتغير. وهكذا يبدأ الطالب مرحلة التعليم الجامعي وفكره خال تماما من هذه الرؤية، ومنفتح لأية تأثيرات.." (١)

وإصلاح هذا الوضع يقتضي تدريس مادة الثقافة الإسلامية في جميع مراحل التعليم: من الروضة والابتدائي أو الأساسي إلى الجامعي ونظام الماستر، وكذا في جميع المعاهد والجامعات، وضمن كل التخصصات العلمية والأدبية.

ولسنا في هذا بدعا بين الأمم، فعدد كبير من دول أوربا وأمريكا يدرسون مادة الدين المسيحي لأبنائهم في المرحلة الأساسية. وبعدها: منهم من يستمر في تدريس المادة إلى الثانوية العامة، ومنهم من يدرّس مواد أخرى، لكن في إطار من التربية المقصودة على الوطنية والاعتزاز بالهوية. ومن أهم هذه المواد: التاريخ، فهذا هو الذي يشكل الأساس الدراسي للهوية في البلدان التي يمنعها نظامها العلماني من تدريس مادة الدين إجبارا. كما تقوم مواد أخرى بالمهمة ذاتها، وإن بدرجة أقل، مثل: اللغة والآداب، والجغرافيا البشرية والاقتصادية، والفلسفة.. أما في المرحلة الجامعية، فإن كثيرا من الأقسام يدرس مادة تسمى "الحضارة الفرنسية" بفرنسا، و"الحضارة البريطانية" ببريطانيا..

- جهل أجيال أخرى جهلا مركبا بالدين:

وهؤلاء – على خلاف فئات واسعة من الشباب الذي لا يملك معرفة حقيقية بدينه- قد يعرفون أشياء عديدة عن دينهم وحضارتهم وتاريخهم، لكنها معرفة منقوصة، وأحيانا كثيرة مشوشة ومشوهة. وهذا جهل أخطر. من ذلك قضية الإصلاح والتغيير، فلا أحد ينكر وجوب السعي إلى تحقيق نهضة إسلامية علمية وعملية، تعيد لنا أثرنا في التاريخ ومكانتنا بين الأمم.. وليست هذه

---

(١)إصلاح الفكر الإسلامي، لطه جابر العلواني، ص ١٦٤.

الغاية سهلة المنال، وقد رام تحقيقها كبار رواد الإصلاح في الأمة طيلة القرون الثلاثة الأخيرة، أمثال محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني وولي الله الدهلوي ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ورفاعة الطهطاوي.. وسطّروا الكتب في تشخيص الأزمة واقتراح الحلول، وعملوا على تنفيذ ذلك ووضعه على الأرض.. فحققوا أشياء عديدة، ولم يمهلهم الزمن لتحقيق جميع الآمال. وساهمت طبيعة العصر وتحدياته العلمية والتقنية والفكرية.. في تعقيد المهمة وإطالة زمن الإصلاح. فهذا عصر فريد من نوعه بين جميع العصور التي مرت على البشرية، إذ حدثت فيه ثورات وانقلابات هائلة في جميع الاتجاهات: الفكرية والتكنولوجية والاقتصادية والأخلاقية.. لا غرابة أنه أصعب الأزمان على الفهم وأبعدها عن الاستيعاب.. حتى بالنسبة لفرق الباحثين وجيوش المفكرين، فكيف بآحاد الشباب من المسلمين؟ وكيف بتغييره وتعديل مسيرته التاريخية؟

لكن بعض شبابنا المتحمس يتصور أن الجهاد العسكري وحده هو السبيل للنهوض، وأنه قادر على حل كل مشكلة وتجاوز كل معضلة. وبذلك أشهدوا على أنفسهم أنهم يجهلون الإسلام وتاريخه، كما لا يعرفون العصر وخصائصه. ولعلهم لو درسوا تاريخ المسلمين الحديث – أعني بالقرنين التاسع عشر والعشرين -، وكيف اندلعت في كافة أرجائه مقاومات مسلحة ضد الغزاة المستعمرين، وقدمت ملايين الشهداء.. ومع ذلك لم ينجح أكثرها في دحر الغزو الفكري كليا، وإن أخرج الجيوش الاستعمارية، كما لم ينجح في بناء البديل الإسلامي المناسب للعصر والزمان.. لو قرءوا وتأملوا لأدركوا أن حمل السلاح الذي يصنعه الأجنبي غير المسلم ليس حلاًّ، وأن قضيتنا أعقد من ذلك وأعمق، وأن السؤال المؤلم النهضة: لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم.. لا يزال ينتظر الجواب.

- ***وجود مصادر متعددة للثقافة الدينية:*** من أهم خصائص زمن العولمة انهيار الحدود بين الثقافات والشعوب. لا يحصى عدد ما يجري يوميا من المبادلات الاقتصادية وتبادل المنافع والخدمات، ولا أعداد المسافرين في كل اتجاه، ولا كمّ المعلومات المتنقلة عبر القارات، ولا حجم الأثر والتأثير بين بني البشر. ولسنا في هذه الدوامة بدعا بين الأمم، بل نحن في قلبها، وربما كنّا آخر من يقاوم في هذا العالم جوانبها السلبية. هكذا يجد الإنسان العربي والمسلم نفسه شبه ضائع في هذا العالم المتحرك الصاخب، فتأتيه الأفكار من كل حدب وصوب: الشبكة العنكبوتية، والقنوات الفضائية، والكتاب والمجلة.. أحيانا يكون الاستهداف مباشرا، وأحيانا بالإيحاء أو الرمز. أحيانا بعفوية وحسن نية، وأحيانا عن سوء قصد وتعمد. لذلك ربما مال الشاب المستقبل إلى أحد طرفين: الغلوّ

في الدين، أو الغلوّ عنه. وليس لهذا من حلّ إلا بتسليح الإنسان العربي المسلم بثقافة إسلامية صلبة، يتلقاها في المدرسة والجامعة، أي في مؤسسات جديرة بالثقة. وإذا تحصّن الشاب لم يضره الشرّ والخطأ، كما لا يضر الجسم السليم الميكروبات والفيروسات المنتشرة في كل مكان.

النتيجة: في أن الثقافة الدينية لا تحتمل الفراغ.

إن الناس يحتاجون إلى الدين وإلى ثقافته وعطائه، والذين يتصورون أنه لا ضرر في إهمال الثقافة الإسلامية، أو التقليل منها ومن شأنها، في المدرسة والجامعة ووسائل الإعلام، وأنه لا أولوية لذلك.. هؤلاء واهمون ومخطئون، لأن الناس ستبحث حتما عن هذه الثقافة أينما وجدت، وستتشبع بها كيفما كانت، فإذا ظهر بينهم غلو وتطرف.. فهو أمر وارد ومتوقع. لذلك فالحلّ في توفير المعرفة الإسلامية الوسطية، والتربية عليها.

الفصل الثاني

تدريس الثقافة الإسلامية بالجامعة : معالم وقضايا.

إن تحقيق الوسطية في مجتمعاتنا عمل كبير يشمل كل مجالات الحياة. ولاشك أن حقل التربية والتعليم منها، لكنني أزعم أنه من أشدها أهمية وأخطرها أثرا. لذلك فمن أكبر الحلول لمشكلة التطرف: توفير الثقافة الدينية الصحيحة لجميع المواطنين، خاصة مع فشو الجهل بالدين حتى بين صفوف الطلاب الجامعيين.

المبحث الأول: الثقافة الإسلامية بمرحلة الماستر الجامعية:

لكنني سأضطر إلى التركيز على المرحلة الجامعية فقط لاختصار البحث، ولأن مادة التربية الإسلامية تدرّس بانتظام قبل الجامعة في أكثر الدول العربية، على تفاوت كبير بينها في الكم والكيف. ونظام الجامعة ينقسم إلى تعليم أساسي بالباكالوريوس أو الإجازة، وإلى تعليم تخصصي عال بالماستر والدكتوراه.

مرحلة الماستر:

أعني بالماستر هنا نوعين: الأول ماستر خاص بالثقافة الإسلامية، وفي بعض البلدان العربية يسمى: ماستر الدراسات الإسلامية، أو ماستر الفكر الإسلامي.. وفي جميعها يدرس الطالب في الغالب أربعة فصول، ثم يتوج ذلك بإعداد بحث علمي. وتستمر هذه الدراسة ما بين سنة ونصف إلى ثلاث سنوات، بحسب نظام البلد أو الجامعة. وهذه دراسة مهمة، لها طبيعتها ومشكلاتها.. لكنني لن أتطرق إلى هذه المرحلة الأكاديمية من الثقافة الإسلامية. فهذا موضوع يحتاج لدراسة مفردة.

وأقصد بالنوع الثاني جميع أنواع الماستر سوى الخاص بالمجال الإسلامي. وذلك كأنواع الماستر في علوم الاقتصاد والإدارة والعلاقات الدولية والاجتماع والدراسات النفسية والتربوية.. بل أقصد حتى ماستر الرياضيات والفيزياء والطب وعلوم الأرض والأحياء.. أي عمليا جميع أنواع الماستر. فهذه جميعا تحتاج إلى تضمين برامجها تدريس الثقافة الإسلامية.

وهذا لغرضين: الأول: لربط التخصص بالمذهبية الإسلامية الشاملة للإنسان والكون والحياة. والثاني لأن المطلوب من مرحلة الماستر التهييء لتحقيق إبداع علمي بخلفية إسلامية. وكلا الهدفين

لن يتحققا ما لم تواكب الثقافة الإسلامية دراسات الماستر. مثلا في ماستر علوم تجريبية ورياضية: يتم التركيز على تاريخ العلوم عند المسلمين وأعلامهم ومنجزاتهم.

وينبغي أيضا تعريف الطالب بمشكلات التخصص عند ممارستها في الواقع الإسلامي، وبالنظريات الموجودة، مثل: التأصيل العلمي للعلوم. أسلمة المعرفة. نقد أسلمة المعرفة. علم نفس إسلامي. الطب في بيئة إسلامية. الاقتصاد المالي في الإسلام.. تقول الأستاذة الجوهرة: " مصطلح التأصيل العلمي.. يعني في أبسط معانيه الاستفادة من معطيات العصر انطلاقا من كتاب الله وسنه حبيبه المصطفى. وهذا الكلام ينفي تهمة الانغلاق، كما ينفي تهمة التبعية وضياع الهوية عن الجامعة.." (١)

ويستفيد الطالب أيضا من المادة: اتساع الأفق، واكتساب ثقافة دينية واجتماعية وحضارية هو في أمس الحاجة إليها. ذلك لأن من أكبر سلبيات التخصص في عالم اليوم الذي يعرف انفجارا معرفيا واسعا هو ضيق مجال التخصص، بحيث يتخرج المتخرج وهو على اطلاع واسع على حقل تخصصه، لكنه بالمقابل يجهل كل شيء تقريبا عن العالم. وقديما أوصى القاضي أبو بكر بن العربي الطلاب بتنويع معارفهم وعدم الاقتصار على دراسة علم واحد يصرفون فيه أعمارهم، ومما قال: "ولا يفرد نفسه ببعض العلوم، فيكون إنسانا في الذي يعلم، بهيمة في الذي لا يعلم. ولاسيما من أقام عمره حاسبا أو نحويا فقد هلك، فإنه بمنزلة من أراد صنعة شيء فشحذ الآلة عمره، ثم مات قبل عمل صنعته، ولا يصغ إلى من يقول له: تكون مقصرا في كل علم إذا فعلت هذا، والأولى لك أن تقف نفسك على علم واحد، فإنه قول جاهل بالعلم، إذا أخذ نفسه بهذا القانون الذي رسمناه سيعتمد على ما يراه أوكد، ويجعل الباقي تبعا." (٢)

مرحلة الباكالوريوس:

وهي التي سأخصها بالتفصيل في بحثي هذا. والقضايا المتعلقة بهذه المرحلة كثيرة جدا، لكنني – تسهيلا للمدارسة- أقسمها إلى قسمين: علمية وعملية.

---

(١)دور جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في تقنين معالجة الإرهاب وقضاياه، للجوهرة آل جهجاه، ص٩.

(٢) العواصم من القواصم، ص٦٩

المبحث الثاني

القضايا العلمية في تدريس المادة بالباكالوريوس:

ومنها ما يتعلق بالأهداف والغايات، ومنها ما يتعلق بالبرامج والمقررات، ومنها ما يتعلق بالكتب والمؤلفات.

المطلب الأول: أهداف مقرر الثقافة الإسلامية:

أتصور أن تدريس الثقافة الإسلامية في هذه المرحلة ينبغي أن يحقق الأهداف الآتية:

١ -الهدف المعرفي:

أ-توفير الحد الأدنى من المعرفة العلمية بالإسلام، بحيث يعرف الطالب أهم ما ينبغي له معرفته من شرائع الإسلام، وأخلاقه، ومذهبيته الشاملة للكون والحياة والإنسان.

ب-التعرّف على العلوم الشرعية التي أسستها الأمة لخدمة دينها، وأهمها: التوحيد، وعلوم القرآن والحديث، والفقه وأصوله..

ج-الوعي بالعطاء الحضاري الإسلامي في مختلف المجالات، من علوم وفنون وآداب وصناعات وحرف وعمارة وتمدين..

د-معرفة الطلاب لتاريخهم في أهم أحداثه، بما فيه من أوقات الانتصار والبناء.. ولحظات الهبوط والانحدار. ويجب -من جهة أخرى- توعيتهم بطبيعة العالم الذي نعيش فيه وكيفية تشكّله، وبموقع الأمة في هذا العالم الجديد، وبالتحديات التي تواجهها، وكذا بعوائقها الداخلية ومشكلاتها الذاتية.

٢ -الهدف التربوي:

أ- ترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس الطلاب، وتربيتهم على مقتضيات التوحيد الروحية والعملية.

ب- اكتساب الأخلاق والقيم الإسلامية، بما فيها التواضع والفضول العلمي والتسامح والتعاون..

٣ -الهدف الفكري،

أي بتنمية مهارات فكرية متطورة، وفي الوقت نفسه منضبطة بقواطع الدين. لذلك يتفرع هذا الهدف إلى اثنين:

أ- تعويد الطالب على التفكير ضمن الإطار الإسلامي، وإكسابه القدرة على تشخيص المشكلات وحلّها ضمن هذا الإطار، بحيث يتوقف الفصام النكد بين الدين والدنيا، أو بين معتقد الطالب الإسلامي وواقعه العصري.

ب- تربية ملكات النقد والموضوعية والمقارنة والسؤال..

المطلب الثاني: المهارات الفكرية المطلوب تطويرها:

يقول الهواري: " تعتمد نظم التعليم في معظم الأقطار العربية على التلقين والتكرار والحفظ، وعلى حشو ذهن الطالب طوال مختلف المراحل الدراسية بمعلومات، دون إعمال للعقل ودون تحليل أو نقد. ومثل هذه النظم تفرز طالبا يتقبل بسهولة كل ما تمليه عليه سلطة المعلم دون نقاش، وبذلك يصبح من السهل جدا على مثل هذا الطالب أن يتقبل كل ما تمليه عليه سلطة أمير الجماعة دون تحليل أو نقد أو معارضة، ويكون عرضة للانخراط في أية جماعة أيا كان توجهها، حيث يتم تلقين الفكر وتقبله دون تحليل، ويسهل الانقياد بفعل إبطال عمل العقل. (١)

يقول ريبيرا عن أساتذة الأندلس: "نعرف أن الأساتذة كانوا يستخدمون الوسائل الذكية واللطيفة كي يحببوا طلابهم في الدرس، ويثيروا فيهم روح المنافسة، ويحركوا فيهم عوامل الفهم والفكر والاستنباط، ويسهلوا لهم التعليم." (٢)

١- المرونة والنسبية: في الإسلام قواعد كثيرة ثابتة، لا تختلف ولا تتفاوت، كأصول العقائد والأخلاق. لكنه يقرّ أيضا بحركة التغيير، ويدعو لعدم الجمود على موقف واحد ورأي واحد في جميع الظروف المكانية والزمانية.. حتى إن الأصوليين والفقهاء يتحدثون مثلا عن "فقه الواقع وأثره في الاجتهاد." (٣)

٢-النقد: تعرف وفاء الزاغة التفكير الناقد بأنه " التفكير الذي يؤجل التسليم بالاستنتاجات أو الآراء والأحكام، ولا ينقاد للاعتقادات المتواترة الشائعة، أو المقولات المتداولة بين الناس، إلا بعد فحصها واختبار صحتها. ويحرص المفكر الناقد على العودة إلى مصادرها الحقيقية والتأكد

---

(١) الإرهاب: المفهوم، والأسباب، وسبل العلاج، لمحمد الهواري، ص١٧

(٢) التربية الإسلامية في الأندلس، ص٩٤.

(٣) راجع: فقه الواقع وأثره في الاجتهاد، لماهر حصوة.

من مدى صحتها." [١] وقد علّم الإسلام الإنسان عدم تقبل شيء إلا بدليله، كما هو بيّن في الكتاب العزيز. وكان علم الحديث من أهم العلوم التي أسهمت في تكوين العقلية العلمية لدى المسلم، فحفظته من الفوضى والخرافة ومحض التقليد. [٢]

٣- التسامح: وذلك يتأتى بتعويد الطالب احترام الآخر، وتفهم وجهة نظره، وبتوعيته باتساع العلوم وتلاطم أمواجه..

٤- الحوار: ويكفي لإدراك أهمية اعتياد التحاور مع الآخر والتحلي بآداب الحوار.. أن نفتح القرآن الكريم، فهو مليء بالحوار في ظروف شتى وبين أطراف متنوعة. والعلاقة بين الحوار والوسطية واضحة، فالمتطرف شخص يعتقد نفسه على الحق المطلق، فلا يحاور ولا يقبل أن يحاور، وإذا فعل لا يعرف آداب الجدل ولا يلتزم بها. [٣]

والآن ما هي هذه المقررات الدراسية التي يفترض أن تحقق هذه الغايات؟ سنتعرف على نموذجين، وهما كافيان لاكتساب تصور عن وضع تدريس الثقافة الإسلامية في الجامعة العربية. بعدها نتعرف على بعض الكتب الموضوعة في هذا الحقل العلمي.

المطلب الثالث: نماذج من مقررات الثقافة الإسلامية.

تختلف مقررات المادة بحسب جمهور الطلاب المستهدف: هل هو من المتخصصين أم لا. وعموما فإن ما يدرسه غير المتخصصين هو العناوين العامة التي يقوم المتخصصون بالتعمق في دراستها. مثلا الطالب غير المتخصص قد يتعرف على النظام الاقتصادي في الإسلام في ثلاث أو أربع حصص دراسية، بينما الطالب المتخصص يدرس الموضوع نفسه خلال حصص مضاعفة..

١ - جامعات سعودية:

يتبين من البحث أن أكثر الجامعات تدرس العلوم والقضايا الآتية ضمن مقرر الثقافة الإسلامية:

١-المدخل: التعريف بالثقافة، وخصائصها وأهميتها..

---

(١) التفكير الخرافي، والمفاهيم العلمية الخطأ، لوفاء عبد الكريم الزاغة، ص ٤٣

(٢) انظر: أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، لخلدون الأحدب.

(٣) راجع التفاصيل في رسالة: وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، لعبد الرب آل نواب، ص١٣ فما بعدها.

٢ -العقيدة الإسلامية.

٣ - العبادة في الإسلام.

٤ - مصادر التشريع الإسلامي.

٥ - النظم الإسلامية.

٦ - التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية. (١) وبين الجامعات اختلافات كثيرة ودقيقة في برنامج المادة، لكنها تشترك في هذه الفصول الستة. وقد رأيت أن أكتفي بهذا الوصف العام حتى لا أثقل البحث بتفاصيل غير ضرورية.

٢ -*كلية الشريعة بالشارقة:*

يبدأ المقرر بتمهيد عن الثقافة الإسلامية وخصائصها. ثم الباب الأول عن مصادر الثقافة الإسلامية، وهي القرآن والسنة، والسيرة النبوية، والإجماع والقياس. أما الباب الثاني: مجالات الثقافة الإسلامية، فعبارة عن ثلاثة فصول: العقيدة، والعبادة، والأخلاق. والباب الأخير يتطرق للتحديات التي تواجه الأمة، ويركز على الغزو الفكري والعلمانية والعولمة. (٢)

المطلب الرابع: عرض نماذج من كتب الثقافة الإسلامية:

وقد حاول مجموعة من المؤلفين تغطية النقص في مجال الكتابة في الثقافة الإسلامية، فألفوا كتبا حرصوا على أن تكون شاملة لأهم المعارف المتعلقة بالإسلام. وبعض هذه الكتب مقرر في بعض الجامعات، كما أن عددا من أساتذة المادة يعتمدون عليها في محاضراتهم. ومن أهمها:

١- **معالم الثقافة الإسلامية، لعبد الكريم عثمان.** وهو من أقدم ما ألف في الموضوع في القرن المنصرم. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول: ١-مبادئ إسلامية: الإيمان، والحق والحرية، والمساواة والعدالة، وخصائص الثقافة الإسلامية، وعالمية الإسلام وإنسانيته، والعبادة والعمل والمسؤولية.

---

(١) اطلعت على مواقع جامعات أم القرى، والإمام محمد بن سعود، وطيبة.. وغيرها كثير بالشبكة العنكبوتية، وتوصلت لهذا الجذع المشترك بينها.

(٢) **انظر: محاضرات الثقافة الإسلامية، إعداد أساتذة قسم أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الشارقة. الإمارات العربية.**

٢- نظم إسلامية: النظام السياسي، والاقتصادي والتكافل الاجتماعي، والنظام العائلي، والخلقي.
٣- من أثر الإسلام: آثار الثقافة الإسلامية. موقف الإسلام من العلم. من أعلام الثقافة الإسلامية.

٢- **لمحات في الثقافة الإسلامية، لعمر عودة الخطيب.** ويقع في ستة فصول:
(١- المدلول العام للثقافة. ٢- ركائز الثقافة الإسلامية وخصائصها. ٣- الثقافة الإسلامية والقوى المعادية: معركة الإسلام في الحياة، وطبيعة المعركة وصور العداء، ونظرة في التاريخ. ٤- خطط المبشرين والمستشرقين. ٤- الثقافة الإسلامية وآفاق الحياة الإنسانية: البناء الفكري والخلقي، والبناء الاجتماعي والسياسي، والروح الإنسانية في علاقات السلم والحرب. ٦- في العقيدة: خصائصها، والعقيدة والحياة، والعقيدة والإنسان).

٣- **أساسيات الثقافة الإسلامية، للصادق الغرياني. وينقسم إلى ثلاثة أقسام:** أ- العقيدة وأصول الدين: حاجة الإنسان إلى الدين. مصادر التشريع. الغلو في فهم الدين. الوقت في حياة المسلم. المعرفة والعلم. الإيمان والإسلام. وجود الله. التوحيد. الإيمان بالملائكة والأنبياء والكتب والقدر. الجن. علامات الساعة. العالم الآخر وأحوال البرزخ.. والحشر.. إلى الجنة والنار. ب-العبادات: مفهومها وأهدافها. صفة كل عبادة تفصيلا: الطهارة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج. ج- العادات والسلوك: البدعة، التصوف والطرق الصوفية والكرامة، وعادات الأفراح والمآتم.

٤- **الثقافة الإسلامية لمجموعة من المؤلفين.** ينقسم الكتاب إلى ثمان وحدات، تحت كل وحدة فصلان فأكثر: ١- التعريف بالثقافة عامة، وبالثقافة الإسلامية خاصة. ٢- مصادر الثقافة الإسلامية ومقوماتها وأهم معالمها وانحراف مسارها. ٣- خصائص الثقافة الإسلامية. ٤- الإسلام والعلم: قضايا العلم والإيمان في الإسلام. وقضايا طبيعية معاصرة في ضوء الشريعة الإسلامية. ٥- قضايا ثقافية معاصرة من منظور إسلامي: الأصالة والتجديد ومشكلة الحداثة. الثابت والمتغير في منهج الإسلام. التقليد والتبعية. مشكلات الشباب. آفة المخدرات. حقوق الإنسان. ٦- تحديات تواجه الثقافة الإسلامية: مفهوم الغزو الثقافي ومخاطره. التبشير. الاستشراق. العلمانية. التغريب الثقافي. العولمة. ٧- النظم الإسلامية: النظام العقدي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي. ٨- الشبهات التي أثيرت حول الإسلام: دين التطرف. نظام الطلاق في الشريعة. تعدد الزوجات. مكانة المرأة في الإسلام. زواج رسول الله. نظام العقوبات. الاتكالية والإيمان بالغيب والقدر. شبهات حول الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي.

المطلب الخامس: نقد عام وتقويم:

يمكن القول: إن أهم القضايا المطلوب دراستها وتدريسها في الثقافة الإسلامية.. متوافرة في هذه المناهج والكتب. بيد أن لي بعض الملاحظات والاقتراحات والانتقادات التي أوردها لتطوير برامج الثقافة الإسلامية والسير بها قدما. وأكثر ذلك ينحصر في أمرين:

الأول- مجموعة من العلوم أو المواد الغائبة عن البرامج المقررة، أو التي لم تقع عناية خاصة بها. ومن أهمها ما يلي:

١- السيرة النبوية. وغير خاف أن حياة النبي العظيم هي أفضل نموذج تطبيقي لمثل الإسلام، كما أن اطلاع الطالب عليها يزيده ارتباطا بالدين ورسوله.

٢- الحضارة الإسلامية: أسسها ومظاهرها ومجالاتها. لا أقصد بهذا الجانب النظري المعبّر عنه بـــ"فلسفة الحضارة"، بل النواحي العملية في حضارتنا، أي كيف ترجم المسلمون قيم الإسلام في حياتهم اليومية ومؤسساتهم.

٣- التاريخ الإسلامي. ولست أدري يقينا لم تواردت كثير من المقررات والكتب على إهمال هذا الحقل. إنه لمن المفيد جدا للطالب أن يطلع اطلاعا عاما على تاريخ أمته.

٤- علم السلوك والتربية.

الثاني- قضايا طوّرها علماؤنا المعاصرون لا تشكل علوما مستقلة، لكنها موضوعات رئيسة وذات أهمية خاصة اليوم، منها:

١- فقه السنن الكونية.

٢- الإسلام والعلم: الموقف العام. نظريات المعرفة في ضوء القرآن. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. خطر التقنية، وتوجيه الإسلام للعلم.

٣- فقه الأولويات والموازنات والمقاصد العامة للشريعة.

٤- حقوق الإنسان بما فيها ما يسمى بحقوق الجيل الثالث، وهي حقوق ثقافية أساسا. وكذا حقوق الشعوب، كاحترام الأديان.

٥- نظريات الإصلاح والنهضة: منذ ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب إلى الأفغاني وعبده وابن باديس والكواكبي.. وكيف عالجوا مشكلات انحطاط المسلمين.

٦- قضية المرأة والأسرة والطفولة.

٧- مشكلات الاجتهاد والفتوى.

٨- الغلو والتطرف الديني.

٩- أعلام الأمة: من الملاحظ أيضا غياب التعريف بنخبة من كبار الأمة، رغم ما لذلك من ربط الطلاب بقمم شامخة في العلم والعمل، يستفيدون كثيرا من الاقتداء بها. وجميع الأمم تحرص على طبع أذهان أبنائها بصور من حياة عظمائها وأعمالهم.

١٠- المجتمع المدني ومؤسساته. لقد حرص الإسلام أن يكون المجتمع أقوى من الدولة وأرسخ، فالأمة هي الأصل، حتى لو ضعفت الدولة أو انهارت، لأي ظرف من ظروف الزمان، استمر المجتمع قائما وحيّا وفاعلا.

١١- الإعلام ووسائله.

١٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. وماذا يمكن للإسلام أن يقدم للعالم اليوم، فنجيب عن سؤال: لماذا تحتاج البشرية إلى الإسلام؟

المطلب السادس: اقتراح نموذج لبرنامج الثقافة الإسلامية:

لعله توضح الآن أنه لا يمكن أن نقدم للطالب ثقافة إسلامية في حدودها الدنيا في فصل دراسي واحد، ولا في كتاب واحد. لذلك أتصور أن مقرر المادة يمكن أن يكون في أربعة أجزاء:

الكتاب الأول: التاريخ الإسلامي.

التاريخ جزء من هوية الإنسان، ومكوّن رئيس من مكوناتها، إلى جوار الدين واللغة. ولا يمكن فصل حاضر الأمة ومستقبلها عن ماضيها. لذلك من حق الطالب أن يعرف تاريخه، لا ليعتز به فقط، بل أيضا ليستفيد منه في حركته الحاضرة. ولا أعني أن ندرّس لطلابنا تفاصيل التاريخ الإسلامي، بل منعطفاته الكبرى، وما فيه من انتصارات وانكسارات..

وهذا يقتضي البداية بجرد عام لأحوال العالم المتحضر عند ظهور الإسلام، حتى يدرك الطالب أن هذا الدين أنقذ البشرية فعلا من انهيار محتم.

ثم ينعطف الدرس إلى السيرة النبوية وعصر الخلافة الراشدة... وهكذا مرحلة مرحلة حتى نصل إلى القرن التاسع عشر الذي عرف سقوط أكثر العالم الإسلامي في براثن الاستعمار الأوربي.

وتوجد مجموعة من الإشكاليات التي ينبغي معالجتها في التدريس والتأليف بحكمة وموضوعية وإيجابية، منها مثلا: قضية الخلاف الداخلي في الأمة منذ نهاية الخلافة الراشدة إلى بروز المشكلة

المذهبية. ومسألة الانحطاط والنظرة المثالية للعصر الذهبي الإسلامي. لحظات الهزيمة في حياة الأمة، بأنواعها العسكرية والحضارية والأخلاقية..

الكتاب الثاني: العلوم الإسلامية.

١- العقيدة: رأس الأمر هو التوحيد، لكن السؤال هو كيف نقدم العقيدة بأسلوب سليم شرعا وعصري شكلا. ثم إن التحدي الكبير في مجال تدريس العقيدة هو في بعث الحيوية وحرارة الروح في نفس المتلقي، وذلك بتحقيق التوازن الدقيق بين التوحيد باعتباره معرفة، وبينه باعتباره روحا تحرك الإنسان والمجتمع.

ومن مشكلات الموضوع أيضا أن بعض البلاد الإسلامية سلفية وبعضها أشعرية، وأحيانا تتدخل الحكومات فتفرض تدريس عقيدة معيّنة. فكيف ندرّس عقيدة البلاد بما يحقق التقارب بين اتجاهات أهل السنة، ويحفظها من تبادل تهم التبديع، ويوفر طاقاتها لما هو أولى.

٢- علوم القرآن والحديث: ليس عندي ما أضيفه هنا، لكن من المهم توعية الطالب بتعدد المدارس في علوم التفسير والحديث والفقه، ويمكن تعريفه أيضا ببعض القراءات المعاصرة للقرآن وبيان بعض أخطائها.

٣-علم الفقه وأصول الفقه: بما في ذلك الفقه المعاصر الذي يبحث في قضايا جديدة لم تطرح على السلف.

٤- الأخلاق، وموقع علم السلوك. لا أعني بالسلوك التصوف، بل التربية الروحية الإيمانية التي تحقق التقوى وتوصل لمقام الإحسان. ولا ينبغي ترك المجال فارغا للطرقية السيئة البدعية، فإن للإنسان حاجات روحية يحرص على إشباعها، ولنقتد بابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذان حاولا ملء هذا الفراغ، فكتب الأول مجلدا ضخما في السلوك ضمن الفتاوى، وكتب الثاني مدارج السالكين.

الكتاب الثالث: الحضارة الإسلامية.

يمكن تقسيم مواضيع الحضارة الإسلامية إلى:

١- النظم: وهي كثيرة، منها الاقتصادي (الصناعة، والتجارة، والفلاحة..)، ومنها التعليمي (الكتاتيب، والمدارس، والجامعات..)، ومنها الاجتماعي والسياسي.. لكن ينبغي أن يقع تركيز

خاص على بعض المؤسسات التي أبدعها المسلمون، ولا تزال مفيدة ومطلوبة إلى اليوم، من أهمها: الشورى، والوقف والتحبيس، والاقتصاد الإسلامي، والحسبة..

٢- التمدن: كل ما يتعلق بالمدينة الإسلامية: تخطيطها، وبناؤها، وعمارتها، وبناياتها..

٣-الفنون: كالنقوش والنمنمات والعمارة والخط العربي..

وتوجد جوانب مهمة في حضارتنا يمكن تخصيصها ببعض الدروس، كمكانة البحر في تاريخنا، والبحرية الإسلامية، العسكرية منها والتجارية..

الكتاب الرابع: مشكلات العالم الإسلامي اليوم.

الهدف من الكتاب تعريف الطالب بأبرز التحديات التي تواجه عالمنا العربي والإسلامي، فيدرك طبيعتها وأسبابها وآثارها؛ وبذلك يتكوّن وعي نقدي عميق بأوضاعنا، ما اعوج منها وما استقام، يكون مقدمة لإبداع الحلول، كل في مجال اختصاصه. ومن الغايات أيضا بعث روح المسؤولية في نفوس الشبيبة وزرع الإحساس بنداء الواجب من الوطن والأمة.

وأهم هذه المشكلات: التجزئة. والتنمية ومعضلة التخلف. ومشكلة التبعية. والعلمانية والتغريب الفكري. والعولمة، والعلاقة مع الآخر. والأقليات والدولة القومية. ونظريات النهضة. والتطرف بنوعيه: الإسلامي والعلماني..

المبحث الثالث

القضايا العملية في تدريس المادة بالباكالوريوس

١ - *الوعاء الزمني:*

لو تقرّر تدريس الثقافة الإسلامية طيلة الباكالوريوس، فإن ساعتين كل أسبوع تكون كافية. بحيث يكون المتوسط العام لعدد الساعات لكل سنة أكاديمية، أو لكل فصلين دراسيين، هو: مائة ساعة على الأقل.

وينبغي ألا يكون معامل المادة بسيطا حتى لا يهملها الطالب. وهذا يتطلب النظر من جديد في مفهوم المواد الرئيسة والثانوية. وهذا مفهوم ساد كثيرا من الجامعات، ولا يزال، رغم خطورته وسلبياته.

٢ - *ما يتعلق بالأستاذ المدرس:*

الأستاذ هو حجر الرحى في عملية التدريس، ويقع عليه واجب إضافي إذا كان يدرس الثقافة الإسلامية. وبيان ذلك فيما يلي:

١ - طبيعة التكوين المطلوب: ينبغي أن يكون موسوعيا، يجمع بين الاستيعاب الإجمالي لتراثنا الإسلامي وبين الوعي العام بطبيعة العصر ومشكلات العالم. ولابد أن يكون الأستاذ متمكنا من المادة العلمية، وبمناهجها وكتبها، كما ينبغي أن يتابع الجديد فيها.

تحدّث المستشرق الإسباني الكبير ريبيرا عن الصفات التي كان يشترطها الأندلسيون في الأستاذ، فذكر منها: العلم، وكيف كان أهل الأندلس يتداولون قولة مالك رحمه الله: أدركت سبعين ممن يقول: قال فلان: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى أساطين مسجد رسول الله. فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أمينا، لم يكونوا من أهل هذا الشأن. (١)

---

(١) التربية الإسلامية في الأندلس. أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص٨٦.

٢- الجانب البيداغوجي: في العقود الأخيرة تطورت كثيرا مناهج التدريس وأساليبه، فينبغي للمدرس أن يحيط بطرف منها حتى يؤتي التدريس أكله. يقول ابن طولون في بيان بعض الأساليب التربوية في تراثنا أثناء الكلام عن منصب المدرّس: "وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين. ثم إن كانوا مبتدئين، فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق." (١) ولذلك أبدع المسلمون مناصب غير المدرس، مثل المعيد الذي يعين الطلاب على فهم درس الأستاذ، ومثل المفيد الذي يقدم بحثا زائدا على بحث الجماعة.. وهذه مناصب مستقرة ومنظمة، لها نظامها وعليها أجرها المحدد. (٢)

٣- الجانب التربوي: للمادة خصوصية، فهي ليست كغيرها، والمفروض أن يكون الأستاذ مربيا، بمعنى أن يجمع بين امتلاك ناصية المعرفة بالموضوع الذي يدرسه وبين التلبس بسمت حسن وأدب ودين. إن التحلي بالأخلاق الرفيعة شرط التأثير في الطلاب وتعديل سلوكهم وأخلاقهم إلى الأفضل. وإن من أخطر وسائل التربية الاقتداء، لذلك يجب أن يكون المربي قدوة حسنة. (٣)

وهذا النمط من الأساتذة هو الذي يمكن أن يحوز ثقة الشباب الطلاب، وأن يحفظهم من سبل التطرف والغلو بأنواعه، ويوجههم لطريق الوسطية والاعتدال. وفي الحديث أن رسول الله r قال: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. (٤) وعلّق عليه ابن القيم، فقال: "أخبر أن الغالين يحرفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يؤوّلونه على غير تأويله. وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاث، فلولا أن الله يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء." (٥)

---

(١)نقد الطالب لزغل المناصب، لابن طولون الدمشقي، ص ١٥٢.

(٢) راجع: نقد الطالب لزغل المناصب، ص ١٥٤.

(٣)منهاج التربية الصالحة، ص ١١٢.

(٤)رواه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة، ١/٣٤٤، حديث ٥٩٩.

(٥) إغاثة اللهفان ١/ ١٥٩.

ويقول ريبيرا في التعليم في الأندلس: "وفضلا عن هاتين الصفتين الجوهريتين: العلم والدين، كانت هناك صفات أخرى موضع التقدير الكبير في الأستاذ، ومنها تحري الصدق، حتى في الأمور التي لا تتصل بالعلم(..) وعلى الأستاذ أن يكون في درسه بشوشا، واجتماعيا، سخيا في ملاحظاته، وأن يتوقى التدليس في الرواية، وأن يتزين بالتقوى، وأن يبتعد عن التلاهي في الأمور(..) وأن يحرض الطالب ويرغبه في العلم وأن يكون معه ما يكونه الأب لابنه، أو الأخ لأخيه، وأن يكون له المثل الأعلى. وأدى هذا في واقع الحياة إلى وجود علاقات ودّ حنون، ومودة صادقة، بين الأستاذ وطلابه." (١)

٣- عدد الطلاب بالصف:

للمسلم المعاصر أسئلة، خاصة بمرحلة الشباب حيث لا تكون شخصيته العقلية والنفسية والسلوكية قد استقرت بعد، لذا من الأهمية بمكان ألاّ يكون عدد الطلاب كبيرا، بمعنى أنه يفترض ألا تكون طريقة تقديم المادة بالمحاضرة في جمهور واسع، بل بالدروس التطبيقية داخل فصول صغيرة. ولعلّ عشرين طالبا في كل صف عدد مناسب.

٤- وسائل التدريس:

ينبغي أن تتنوع طرق تقديم الدرس، ولا تقتصر على أسلوب واحد، حتى لا يقع الملل للطلاب. كما أن تنويع هذه الوسائل يساهم بفعالية كبيرة في الاستيعاب الجيد للمادة. وهذه أهمها:

١- الإلقاء: أي المحاضرة.

٢- مناقشات صفية: خاصة في مظان الخلاف.

٣- مشاركة الطلاب: كلما استطاع الأستاذ إثارة انتباه الطلاب وإشراكهم في الدرس بالأسئلة والإضافة والتعليق.. دلّ ذلك على نجاح التدريس.

٤- استخدام الوسائل السمعية- البصرية: كالمقتطفات من أفلام وثائقية، أو الصور، أو البيانات..

---

(١) التربية الإسلامية في الأندلس. أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص٩٣-٩٤

٥- استعمال الخرائط بكثرة، خاصة في التاريخ الإسلامي، والمشكلات المعاصرة للأمة.

٦- استخدام لغة الأرقام، وتعويد الطالب على التفكير تفكيرا كمّـيا أيضا، لا كيفيا فقط.

وقد استفدت هذين الأسلوبين الأخيرين من المفكر مالك بن نبي رحمه الله، فقد بيّن أثر المعرفة بالجغرافيا وبالأرقام الكبيرة في توسيع أفق المتلقي. [١]

ملاحظات ومتفرقات:

أولا- يوجد سؤال مهم، وهو: هل يجوز أن تختلف طريقة التدريس وبعض مضامين المادة من جامعة لأخرى، أو من بلد لآخر.. وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما هو الجذع المشترك لجميع مناهج الثقافة الإسلامية، وما هي خصوصياتها بحسب الجامعة أو البلد..؟ والسؤال بصيغة أخرى: هل يستحسن أن ندرّس نموذجا واحدا للثقافة الإسلامية، أم إن نماذج المادة يمكن أن تتعدد؟

ورأيي أن التعدد والتنوع أفضل للأسباب الآتية:

١- اختلاف ظروف كل بلد، مثلا توجد بلاد تعرف تنوعا دينيا، وأخرى مذهبيا. وتوجد بلاد تعرضت لقوة التغريب أكثر من غيرها.. فلا نستطيع مثلا أن نضع السعودية التي طوّرت كثيرا مناهج تدريس الثقافة الإسلامية مع بلد آخر لا يزال يتحفظ على نشر هذه الثقافة في مختلف جامعاته.

٢- والاختلاف أيضا واقع بحسب الكفاءات المتوافرة، فإذا توفر الأساتذة أمكن تنويع المادة إلى مستويات جدّ متطورة.

٣- اختلاف التخصص: إذ ليس من المناسب أن نقدّم المادة نفسها لطالب الطب والصيدلة، وطالب القانون والإدارة، وطالب الآداب واللغات، وطالب الحاسوب والمعلومات، وطالب الإعلام والصحافة..

لكنني – بصفة عامة - أقترح مؤقتا تأسيس النموذج الواحد وتطويره، لأنه أسهل وأيسر في الإعداد والعمل. وحين تنجح التجربة وتترسخ ننتقل إلى التنويع والتصنيف.

---

(١) انظر كتابه: مذكرات شاهد القرن، عند حديثه عن تجربته القصيرة في تعليم العمال الجزائريين البسطاء بفرنسا.

ثانيا - لابد من درجة كافية من الجرأة الفكرية وحرية التعبير في تناول قضايا المادة. إذ توجد إشكالات حقيقية، تحتاج إلى علم وحكمة لتحريرها وحلّها. مثلا كيف نقدم للطالب مفهوم الجهاد في الإسلام؟ إن الكلام المتكرر عن السلام والتسامح في الإسلام.. كلام صحيح ومطلوب، لكن الشاب المسلم حين يفتح القرآن الكريم يجد آيات عديدة في القتال والجهاد.. أما لو ولج إلى بعض مواقع الأنترنت، فستمطره بمئات النصوص، من آيات وأحاديث ومأثورات السلف وأقاويل العلماء.. فيتساءل ما موقع هذه النصوص من عالم اليوم ومشكلاته. لذلك لابد أن نقدم له قراءة صلبة للموضوع، تجمع بين تفسير النصوص وتأويلها – بالمعنى الذي يقصده ابن جرير الطبري- وبين مراعاة مقاصد الشريعة وفقه الأولويات من جهة ثانية، وبين اعتبار العصر وخصائصه وطبيعته من جهة ثالثة. فلا ينفع تجاوز الموضوع، أو المرور بسرعة فوقه.. مرور الكرام. ولاشك في وجود جهود لابأس بها في هذا الاتجاه، فعلى سبيل التمثيل بدأ الشيخ الميداني رحمه الله بتعريف الجهاد، وتتبع آياته في القرآن، كما قام ببيان مجالاته، وذكر منها عشرة، أحدها فقط هو القتال العسكري، فأوضح شروطه، وكيف انحرف المفهوم لدى فئات من المسلمين، فأساءوا وما أحسنوا، وهدموا وما بنوا.. (١)

ثالثا - لابد أيضا من استخدام الأسلوب الهجومي في الكتاب، وليس فقط النهج الدفاعي على نحو ما يستعمله الذين كتبوا في الرد على الشبهات المثارة على الإسلام. يقول العلواني: "على المستوى الفكري يواجه الطالب الجامعي في العالم الإسلامي العقائد والفلسفات الغربية التي تقدم له مع دفاع هزيل يائس عن الإسلام، إذ لا توجد مؤسسة أكاديمية في العالم الإسلامي الحديث يدرس فيها الفكر الإسلامي وتعمق فيها الرؤية الإسلامية بالقوة نفسها والأداء الذي تدرس بهما الأفكار والرؤية الغربية لطلبة الدراسات الثانوية والجامعية في الغرب، أي بترابط وشمولية وجدية والتزام من قبل الجميع." (٢)

---

(١)راجع: مفهومات يجب تصحيحها، لعبد الرحمن الميداني، ص ٧٥ فما بعدها.

(٢)إصلاح الفكر الإسلامي، لطه جابر العلواني، ص ١٦٤.

رابعا – أتساءل أيضا: هل يجدر بنا إضافة وحدة خاصة ومستقلة إلى مقرر الثقافة الإسلامية، وهي: تاريخ التشكّل العام للغرب. أي نقدم للطالب رؤيتنا الإسلامية والموضوعية حول التاريخ العام للغرب، منذ المرحلة اليونانية بقارة أوربا إلى الفترة المعاصرة التي تعيش ذروتها بقارة أمريكا.. مرورا بالعصور الوسطى والكنيسة والإقطاع وعصر النهضة والكشوفات الكبرى في الجغرافيا والعلوم.. ثم القرن التاسع عشر المميز بانفجاراته المعرفية والإيديولوجية الضخمة، وبحركة الإمبريالية والاستعمار.. بمعنى أن نقدم لطلابنا قراءتنا نحن لهذا التاريخ، وليس القراءة الغربية التي كثيرا ما تكون منحازة ومتمركزة على الذات. وسيكون تأريخنا للغرب وتجاربه موضوعيا، لكننا سنبرز فيه أيضا القوى الدفينة المحرّكة لهذا التاريخ، وسلبيات التطور الغربي، وكيف أعاد تشكيل العالم، وغيّر الأرض والسماء، وكيف أنتج مخاطر لا حصر لها على الحياة والحيوان والإنسان، وكيف أوصل نفسه – وسائر العالم معه- إلى مآزق عميقة على مختلف الأصعدة؟

هذا التدريس لو تمّ، بعمق وموضوعية وعقلية ناقدة فاحصة.. فإنه سيكسب الطالب نموذجا معرفيا **model** يرى به العالم، ويفهم به ظواهره المعقدة فهما إجماليا، ويميز بينها ويحكم على بعضها، ولا يقع فريسة سهلة للانبهار بما عند الآخر.

خامسا- وفي الأخير أقترح تدريب الطلاب على قراءة مقدمة ابن خلدون، بحيث يقرر الأستاذ لكل فصل دراسي فصولا مختارة من المقدمة. إن من رأيي أن كتاب ابن خلدون هو أعظم تأليف في الثقافة الإسلامية قديما.. ليس فقط بالنظر لمضامينه الرفيعة، بل أيضا لأنه كتاب يعلم النقد والتفكير والموضوعية، كما يبعث على التأمل والمقارنة وعمق النظر..

التوصيات العملية:

١- تنظيم ندوة بالمستقبل حول موضوع: تدريس الثقافة الإسلامية بالجامعة. فتتولى الندوة وضع النظرية والخطة. والفكرة الأم هنا هي جمع خيرة الأساتذة المختصين بتدريس الثقافة الإسلامية، وتبادل الخبرات بينهم، ووضع تصور أولي مشترك. ولعل بلدان السعودية، ومصر، والمغرب.. بلدان رائدة في هذا الحقل من التدريس الأكاديمي.

٢- تكوين أربع لجان: كل لجنة تتولى تنسيق كتاب واحد، واللجنة الخامسة تضم رؤساء اللجان الأربعة.

٣- مخاطبة الوزارات والجامعات المعنية بالموضوع.

٤- اقتراح المشروع على جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، واتحاد الجامعات العربية، ووزارء التعليم، واتحادات العلماء.

٥- ترجمة الكتب الأربعة إلى مختلف اللغات، حتى يجعلها المهتمون بالعالم الإسلامي غير العربي، وبالأقليات المسلمة بأوربا وأمريكا، أساسا لكتب أخرى تتوافق والواقع المحلي.

٦- تأسيس رابطة أساتذة الثقافة الإسلامية في رحاب جامعة طيبة وبإشرافها ودعمها.

وصلّ اللهم وسلم على النبي الأكرم، وعلى آله وصحبه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع:

١- أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، لخلدون الأحدب. نشر معهد مكة المكرمة بجدة، ط١، ١٤٢٧، ٢٠٠٦.

٢- إصلاح الفكر الإسلامي، لطه جابر العلواني. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط٥، ١٤٢٩، ٢٠٠٩,

٣-أصول تشكيل العقل المسلم، لعماد الدين خليل. دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ١٤٢٦، ٢٠٠٥. دون ذكر رقم الطبعة.

٤-أساسيات الثقافة الإسلامية، للصادق الغرياني. مكتبة حمودة، ليبيا. ط٨، ٢٠٠٩.

٥-الإسلام دين العلم والمدنية، لمحمد عبده. تحقيق ودراسة: عاطف العراقي. دار مصر المحروسة، القاهرة. ,٢٠٠٨

٦-الإرهاب: المفهوم، والأسباب، وسبل العلاج، لمحمد الهواري. رسائل رابطة العالم الإسلامي، جدة. دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٧- إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن قيم الجوزية. تحقيق محمد سيد كيلاني. دار التراث بالقاهرة. د.ط.ت.

٨-التفكير الخرافي، والمفاهيم العلمية الخطأ، لوفاء عبد الكريم الزاغة. ديبونو للطباعة والنشر، الأردن. ط١، ٢٠١٠.

٩-أزمة العقل المسلم، لعبد الحميد أحمد أبو سليمان. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط٢، ١٤٣٠، ,٢٠٠٩

١٠-التربية الإسلامية في الأندلس. أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، لخوليان ريبيرا، ترجمة الطاهر مكي. دار المعرف، القاهرة. ط٢، ١٩٩٤.

١١-الثقافة الإسلامية، لمحمد أبو يحيى وراشد شهوان وغيرهم. دار المناهج بالأردن. ط١، ١٤٢١، ٢٠٠١.

١٢-الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، لعلي الشبل. رسائل رابطة العالم الإسلامي، جدة. د.ط.ت.

١٣-رفاعة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث، لمحمد عمارة. دار الشروق، القاهرة. ط٣،

.٢٠٠٧

١٤-روح الحضارة الإسلامية، لمحمد الفاضل بن عاشور. نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا بأمريكا، والدار العربية للعلوم ببيروت. ط٤، ١٤٢٥، ٢٠٠٥.

١٥-دور جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في تقنين معالجة الإرهاب وقضاياه، للجوهرة آل جهجاه. رسائل رابطة العالم الإسلامي، جدة.

١٦-دور المدرسة في مقاومة الإرهاب والعنف والتطرف، لعبد الله اليوسف، رسائل رابطة العالم الإسلامي، جدة. د.ط.ت.

١٧-صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، لأمين الخولي. الأعمال الكاملة، الجزء التاسع. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

١٨-عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، لمحمد عمارة. دار الشروق، القاهرة. ط٣، ٢٠٠٧.

١٩-العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي. تحقيق عمار الطالبي. دار التراث، بالقاهرة.١٩٧٤.

٢٠- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية، لعبد الله السامرائي. دار واسط للنشر، بغداد. ط٢، ١٩٨٢.

٢١-فقه الواقع وأثره في الاجتهاد، لماهر حصوة. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط١، ١٤٣٠، ٢٠٠٩,

٢٢-الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر، لسعيد العلوي. دار المدار الإسلامي، ليبيا. ط١، ٢٠٠٧.

٢٣-فيض القدير شرح الجامع الصغير، لمحمد عبد الرؤوف المناوي. أخرجه أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية بيروت.ط٣، ٢٠٠٦.

٢٤-الكتاب المقدس والقرآن والعلم، لموريس بوكاي. ترجمة حسن خالد. المكتب الإسلامي ببيروت، ط٣، ١٤١١، ١٩٩٠.

٢٥-كلمات في الوسطية والاعتدال، للقرضاوي. ضمن سلسلة المدخل لمعرفة الإسلام. وقد تداولتها كثير من المواقع على النت.

٢٦-لمحات في الثقافة الإسلامية، لعمر عودة الخطيب. مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٧٩,

٢٧-لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور. دار صادر، بيروت. دون ذكر بيانات الطبع.

٢٨-لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، لشكيب أرسلان. الدار التقدمية، بيروت. ط١، ٢٠٠٨.

٢٩-وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، لعبد الرب آل نواب. رسائل رابطة العالم الإسلامي، جدة.

٣٠-محاضرات الثقافة الإسلامية، إعداد أساتذة قسم أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة الشارقة. الإمارات العربية. دون تاريخ.

٣١-مفهومات يجب تصحيحها، لعبد الرحمن الميداني. مؤسسة الريان، بيروت. ط ٢٠٠٦,

٣٢-مذكرات شاهد القرن، لمالك بن نبي. دار الفكر، دمشق. الطبعة الثانية، ١٤٠٤، ١٩٨٤.

٣٣-معالم الثقافة الإسلامية، لعبد الكريم عثمان. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١٦، ١٩٩٢.

٣٤-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية، إيران.

٣٥-مؤتمر عمان بالأردن، من ٢٦ إلى ٢٨ شعبان ١٤٢٨هـ:ندوة تيار الوسطية ودوره في بناء الأمة، تغطية موقع الإسلام اليوم.

٣٦-ندوة: الخطاب الديني: سند التنمية. تنظيم ونشر وزارة الشؤون الدينية بتونس. ٢٠٠٦,

٣٧-نقد الطالب لزغل المناصب، لابن طولون الدمشقي. تحقيق محمد دهمان وخالد دهمان. منشورات مركز جمعة الماجد، بدبي. ط١، ١٩٩٢.

٣٨-الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. بتعليق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة السابعة، عام ١٤٢٦هـ، الموافق لسنة ٢٠٠٥,

٣٩-منهاج التربية الصالحة، لأحمد البيانوني. دار السلام بالقاهرة. ط٣، ١٩٨٨,

٤٠-معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج. تحقيق: عبد الجليل شبلي. ط١، ١٤٠٨. عالم الكتب، بيروت.